نموذج جديد من قصص فرنسي :

إدريـــس

(قصة مغربية بالفرنسية — للأستاذ على الحامى)

للأستاذ محمود تيمور بك

ثلاثة عناصر ، متى توافرت لعمل فنى مكنت له ، وأبلغته ذروة الإجادة ، فأسلست له أهواء النفوس ...

تلك العناصر التى أعنيها ، هى :

قوة الإحساس ، وصدق التعبير ، وموهبة الأداء ...

وقد اتسقت ثلاثتها فى هذه القصة التى ألفها الأستاذ « على الحامى » فى اللغة الفرنسية ، وسماها : « إدريس » ، وصور بها الحياة المغربية وما يضطرم فيها من آلام وآمال ...

فى تلك القصة تنبسط صحف من التاريخ ، وتنصقل مرآة للحاضر ، وتتجلى أحوال سياسية واجتماعية قائمة ، وتترسل روح من الوطنية تثير الأفئدة وتهز المشاعر . فالكتاب بفضل ما حواه من ذلك كله — يعد نموذجاً من القصص القومى ، جديراً بالتقدير والإعجاب ...

ومما هو مسلم به عند البصراء من نقاد الأدب أن الفن لا يجود ولا يؤتى جناه إلا إن تركت له حرية التحليق والانطلاق ، لا نزعة تملى عليه ، ولا مبدأ يتحكم فيه . ومن ثم كانت القصص التاريخية والسياسية والوطنية فى المقام الثانى من القصص الفنى ، لأن كتابها مقيدة أقلامهم بما حدد لهم من أغراض ، وما عين لهم من أهداف .

ولكن الأديب « الحامى » فى قصته القومية ، ينجو من تبعة هذا النقد ، ويسمو على تلك الملاحظة ، وذلك لأنه لم يخضع قلمه لمنحًى مسوق إليه ، ولم يرد فنه على غرض دخيل عليه . وإنما أحس فى قوة ، وعبر فى صدق ، وأدى قادراً على الأداء .

لقد عايش المؤلف أمته ، وشهد ما تعانيه من كوارث ، وما يعوق خطاها من أغلال ، وشعر بما يعتلج بين حناياها من منازع الحرية والعزة ، وكان لذلك أثر فى نفسه لم يلبث أن دفعه إلى التعبير ، فجرى قلمه طلقاً يصور حياة قومه ، ويكشف عن آلامها وخوالج نفسها فى إيحاء فنى قويم .

وأنت تسايره « إدريس » بطل هذه القصة ، وهو يروى لك أحداث حياته ، وما تعاقب عليها من أحوال ، فإذا بك — وأنت مسترسل معه — تطالع الحياة المغربية فى عصرها العتيد ، فترى كيف صنعت سياسة الاستعمار بذلك الوطن المغلوب على أمره ، وتعلم كيف يسام الخسف والعسف فى جحيم تلك السياسة الغشوم ، وكيف تتوق نفسه إلى عيش الحرية والكرامة ، فهو يكافح ويجاهد ما وسعه الكفاح والجهاد .

فقارىء هذه القصة لا يملك سكينته إزاء ما يمر به من صور تفصح له عن نفسية شعب أبى يتترى فى الحديد والنار ، وتشعره بما يكمن فى سريرة ذلك الشعب من قوة وحمية ، وما يغلى فى عروقه من دماء أسلافه الذين كانوا فى طليعة بناة الحضارة وسادة الأمم .

والقصة فى جملتها مزاج طريف من التاريخ والسياسة والوطنية والاجتماع ، أو طاقة مزهرة تجمع تلك الأفانين المختلفة ؛ وبراعة الكاتب تتجلى فى تأليف هذا المزاج ، وتنسيق تلك الطاقة . فهيهات أن يلمح القارىء فى أطواء القصة حديثاً لا يستدعيه الموقف ، أو موقفاً ينبو عن السياق ، أو إغراقاً فى وصف وتصوير تتجافى به القصة عن سبيل التأثير والإقناع .

ما أكثر ما كتب الغربيون عن الأمم الشرقية والإسلامية بلغات الغرب ، ولكن ما كتبوه لا يصور نفسية هذه الأمم وعقليتها حق تصويرها ، ولا يستوفى حقائقها كما هى عليه ، وذلك لأن أولئك الكتاب إما أن تحدوهم نيَّة سيئة ونزعة مغرضة ، وإما أن يقعد بهم عجز عن التحقيق وصدق التصوير .

وإذن فقد أحسن صاحب « إدريس » صنعا ، إذ كتب قصته بلغة غربية ، سدا لذلك النقص ، وإطلاعاً لقراء الغرب على حقائق أمة إسلامية فتية تنشد سلامة وكرامة .

وما أجمله توفيقاً أن تكون تلك اللغة الغربية التى كتبت بها القصة هى اللغة الفرنسية .. فالقصة ليست إلا صفحة من اضطهاد المستعمر الفرنسى . فمن الخير أن يقرأها الفرنسيون بلغتهم ، دانية المنال ، حتى يتبين لهم : كيف يؤدون فى بلاد المغرب رسالة الحرية والسلام !

محمود تيمور